العوامل الجغرافية وأثرها في إقليم طبرستان حتى سنة (٢٢٥هـ / ٨٤٠م)

م.د عواطف عجاج سليمان

مديرية تربية كركوك/ معهد الفنون الجميلة للبنين/ كركوك

Geographical Factors and Their Impact on the Emergence of the State in Tabaristan until 225 AH / 840 AD

المستخلص

يتناول هذا البحث دراسة العوامل الجغرافية التي أسهمت في إقليم طبرستان حتى سنة (٢٢٥هـ / ٨٤٠م)، إذ يُعد هذا الإقليم من المناطق المهمة في شمال إيران لوقوعه على الساحل الجنوبي لبحر الخزر، وإحاطته بسلسلة جبال البرز التي شكلت حصناً طبيعياً صعب الاختراق. وقد هدفت الدراسة إلى بيان أثر البيئة الجغرافية المتمثلة بالتضاريس الجبلية والسهول الساحلية والأنهار والمناخ والتربة في تشكيل الحياة السياسية والاقتصادية والعسكرية في طبرستان خلال هذه المدة.

وقد اعتمد البحث المنهج التاريخي التحليلي في دراسة المصادر الجغرافية والتاريخية التي تناولت وصف الإقليم وخصائصه الطبيعية، مع التركيز على العلاقة بين البيئة الطبيعية وقيام الكيانات السياسية المحلية. وتوصلت الدراسة إلى أن الطبيعة الجبلية الوعرة وكثرة الغابات في طبرستان أسهمت في توفير الحماية الطبيعية للسكان، مما صعّب على القوى الخارجية السيطرة الكاملة على الإقليم، كما ساعدت السهول الخصبة والمناخ الملائم على ازدهار النشاط الزراعي والتجاري وقيام مدن مهمة مثل آمل وسارية.

الكلمات المفتاحية طبرستان ـ العوامل الجغرافية ـ التضاريس الطبيعية ـ المدن والعمران ـ قيام الدولة.

Abstract

This study examines the geographical factors that contributed to the emergence of the state in the region of Tabaristan until 225 AH / 840 AD. Tabaristan was one of the important regions in northern Iran due to its strategic location on the southern coast of the Caspian Sea and its proximity to the Alborz mountain range. These geographical features played a significant role in shaping the political, economic, and military conditions of the region during the studied period.

The research aims to highlight the role of the natural environment—represented by mountainous terrain, coastal plains, rivers, climate, and soil—in influencing the political development and the formation of local authorities in Tabaristan. The study relies on a historical and analytical approach through examining geographical and historical sources that described the region and its natural characteristics.

Keywords Tabaristan - Geographical Factors - Natural Topography - Cities and Urbanization - State Formation.

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تُعدُّ الجغرافية من العوامل الأساسية التي أسهمت في تشكيل مسار الأحداث التاريخية، إذ كان للموقع الجغرافي والتضاريس الطبيعية أثر واضح في نشوء الدول والكيانات السياسية عبر العصور المختلفة. فقد لعبت البيئة الطبيعية دورًا مهمًا في تحديد طبيعة النشاط الاقتصادي والعسكري للمجتمعات، كما أثرت في قدرة الدول على التوسع أو الدفاع عن أراضيها. ولهذا اهتم المؤرخون والجغرافيون بدراسة العلاقة بين الجغرافية

والتاريخ، لما لها من أثر كبير في فهم نشأة الدول وتطورها.

ومن بين الأقاليم التي كان للعامل الجغرافي دور بارز في تاريخها إقليم طبرستان، الذي يقع في شمال إيران على الساحل الجنوبي لبحر الخزر، ويتميز بطبيعته الجبلية الوعرة وكثرة غاباته وأنهاره. وقد أسهمت هذه الخصائص الطبيعية في جعل الإقليم من المناطق الحصينة التي يصعب إخضاعها بسهولة، الأمر الذي أتاح لسكانه الاحتفاظ بقدر من الاستقلال السياسي في بعض الفترات التاريخية. كما أن موقع طبرستان بين البحر وسلسلة جبال البرز جعلها منطقة ذات أهمية استراتيجية، إذ شكلت صلة وصل بين الأقاليم الداخلية لإيران والمناطق الساحلية.

وقد جاء اختيار موضوع العوامل الجغرافية وأثرها في قيام الدولة في طبرستان حتى سنة (٢٢٥هـ / ٨٤٠م) لما يتمتع به هذا الإقليم من أهمية تاريخية وجغرافية، فضلاً عن الدور الذي لعبته البيئة الطبيعية في تشكيل تاريخه السياسي خلال القرون الإسلامية الأولى. كما يهدف هذا البحث إلى بيان أثر التضاريس الطبيعية والمناخ والتربة والموقع الجغرافي في نشوء الكيانات السياسية في طبرستان، وإبراز العلاقة بين البيئة الجغرافية وتطور الأحداث التاريخية في هذه المنطقة.

وانطلاقًا من ذلك، قُسِّم البحث إلى مبحثين رئيسين، تناول المبحث الأول الخصائص الجغرافية والطبيعية لإقليم طبرستان. أما المبحث الثاني فقد خُصص لدراسة المدن والعمران.

وفي ضوء ذلك يسعى هذا البحث إلى إظهار الدور الذي أدته الجغرافية في تشكيل تاريخ طبرستان السياسي، وبيان مدى تأثير البيئة الطبيعية في قيام الدولة وتطورها خلال المدة المدروسة.

المبحث الأول الخصائص الجغرافية والطبيعية لإقليم طبرستان

أولا: أصل تسمية طبرستان

اختلفت آراء الجغرافيين والمؤرخين في تفسير أصل تسمية طبرستان، إذ أوردت المصادر عدة تفسيرات لغوية وتاريخية لهذه الكلمة. فقد ذكر ابن الفقيه أن تسمية طبرستان تعود إلى طبيعة الإقليم المغطاة بالأشجار الكثيفة، فلما دخلها قوم من جيلان [١] أرادوا قطع تلك الأشجار بالفؤوس ليتمكنوا من السكن فيها، ومن هنا جاءت التسمية، لأن كلمة (طبر) في اللغة الفارسية تعني الفأس، أما (ستان) فتعني المكان أو البلاد، فيكون معنى الاسم "بلاد الفؤوس" (ابن الفقيه، ١٩٩٦، ص٣٠١–٣٠٢؛ التميمي، ٢٠١٠، ص٤٠).

وقد نقل ياقوت الحموي هذا الرأي في كتابه معجم البلدان، إلا أنه رجّح تفسيراً قريباً منه، إذ أشار إلى أن سكان تلك المناطق الجبلية كانوا كثيري الحروب ويعتمدون على الفؤوس سلاحاً رئيساً في القتال والعمل، حتى أصبح الطبر من أكثر الأدوات انتشاراً بينهم، ولذلك سميت البلاد بطبرستان أي موضع الطبر أو أرض الفؤوس (الحموي، ١٩٩٥، ج٤، ص١٤).

كما ذهب بعض الجغرافيين إلى تفسير آخر للتسمية، فقد ذكر البكري أن أصل الكلمة قد يكون من لفظة فارسية مركبة هي طبراستان، وتعني موضع الشجر والفؤوس، في إشارة إلى كثافة الغابات في الإقليم واعتماد سكانه على الفؤوس في قطع الأشجار واستغلال الموارد الطبيعية (البكري، ١٩٩٣، ص٣٠١). وقد أيد

(١) يقولون: جيل او جيلان واحيانا بصيغة الجمع فيقولون جيلانات ويقال ان اسم جيلان اشتق من كلمة جل اي الطين او الوحل وذلك لكثرة المستنقعات فيها. ينظر:(ابن رستم، ١٩٩١، ص١٤٩–١٥١؛ المقدسي، ١٩٠٩، ص٢٨, ٣٥٥، ٣٦٠)

هذا الرأي أيضاً عدد من الجغرافيين مثل القزويني وأبي الفداء اللذين أشارا إلى طبيعة البلاد الجبلية وكثرة الأشجار فيها (القزويني، ١٩٦٠، ص٤٠٤؛ أبو الفداء، ١٨٤٠، ص٤٣).

ويرى بعض الباحثين المحدثين أن تسمية طبرستان قد تكون مرتبطة بطبيعة الإقليم الجبلية، إذ ذهب لسترنج ورابينو إلى أن كلمة طبر قد تدل في لغات سكان المنطقة القديمة على الجبل، وعليه فإن طبرستان تعني "بلاد الجبال"، وهو تفسير يتوافق مع الواقع الجغرافي للإقليم الذي تحيط به جبال البرز وتكثر فيه الغابات (لسترنج، ١٩٨٥، ص٤٠٩؛ رابينو، ١٩٩٩، ص١٧).

أما في العصور الإسلامية المتأخرة فقد بدأ اسم مازندران[٢] يحل تدريجياً محل اسم طبرستان، إذ أطلقت هذه التسمية على الإقليم منذ القرن السابع الهجري، حتى أصبح الاسم الشائع له في العصور اللاحقة، على الرغم من أن المصادر الجغرافية القديمة كانت تستخدم اسم طبرستان للدلالة على المناطق الساحلية والجبلية الواقعة جنوب بحر الخزر (الحموي، ١٩٩٥، ج٤، ص١٣؛ حبيب،١٩٦٨، ص ٦٢).

كما يمكن الإشارة إلى أن اختلاف الآراء في أصل تسمية طبرستان يعكس في جانب منه طبيعة الإقليم الجغرافية والبيئية، إذ إن أكثر التفسيرات ربطت الاسم بكثرة الغابات أو بالطبيعة الجبلية للمنطقة. فقد كانت طبرستان من الأقاليم التي تغطيها الغابات الكثيفة وتحيط بها المرتفعات، الأمر الذي جعل الفأس أداة أساسية في حياة سكانها سواء في قطع الأشجار أو في استعمالها سلاحاً في الحروب. ولذلك فإن تفسير التسمية بمعنى "بلاد الفؤوس" أو "بلاد الجبال" يبدو منسجماً مع طبيعة المنطقة الجغرافية. وقد أشار عدد من الجغرافيين إلى أن هذه البيئة الجبلية والغابية أسهمت في تكوين مجتمع محلي يعتمد على الشجاعة والقدرة القتالية، كما منحت الإقليم نوعاً من الحصانة الطبيعية التي جعلته من المناطق الصعبة على السيطرة الخارجية عبر مراحل التاريخ (لسترنج، ١٩٨٥، ص٤٠٩؛ رابينو، ١٩٩٩، ص١٨).

كما أن ارتباط اسم طبرستان بالطبيعة الجبلية والغابية للإقليم يعكس العلاقة الوثيقة بين البيئة الجغرافية والتسمية التاريخية للأقاليم، إذ كثيراً ما ارتبطت أسماء المناطق بخصائصها الطبيعية أو بالأنشطة التي يمارسها سكانها. (الحموي، ١٩٩٥، ج٤، ص١٣).ومن هنا فإن تسمية طبرستان تمثل مثالاً واضحاً على تأثير البيئة الجغرافية في تشكيل الهوية التاريخية للإقليم، وهو ما يفسر استمرار هذا الاسم في المصادر الإسلامية الأولى قبل أن يحل محله اسم مازندران في الفترات اللاحقة من التاريخ الإسلامي

وقد ارتبط اسم طبرستان في المصادر الإسلامية المبكرة بوصفه الإقليم الواقع على الساحل الجنوبي لبحر الخزر[٣]، وهو إقليم اشتهر بوعورة

(٢) مازندران: اسم فارسي أطلق على إقليم طبرستان في شمال إيران، ويُفسَّر غالبًا بأنه مركب من كلمات فارسية تعني «بلاد ما وراء الجبال» أو «وادي العمالقة»، في إشارة إلى وقوع المنطقة خلف جبال البرز جنوب بحر الخزر.
Encyclopaedia Britannica. (2025). Mazandaran. Retrieved from https://www.britannica.com /place/Mazandaran

(٣) بحر الخزر: هو البحر الواقع شمال بلاد طبرستان وجرجان، ويعرف عند الجغرافيين المسلمين ببحر الخزر أو بحر جرجان أو بحر طبرستان، وقد ذكره المسعودي عند وصفه لبحار العالم فقال: «وبحر الخزر بحر عظيم لا يتصل ببحر من البحار، وعليه مدن وبلاد كثيرة»، مشيرًا إلى استقلاله عن

تضاريسه وكثرة جباله وغاباته. وقد أدى ذلك إلى أن يكون الاسم مرتبطاً في أذهان الجغرافيين بطبيعة الإقليم الجبلية والغابية، إذ وصفه كثير منهم بأنه من البلاد الحصينة التي يصعب على الجيوش الوصول إليها بسهولة (القزويني، ١٩٦٠، ص٤٠٤؛ أبو الفداء، ١٨٤٠، ص٤٣). ولهذا السبب احتفظ الإقليم بخصوصيته السياسية والاجتماعية مدة طويلة، إذ كانت الجبال والغابات تشكل حاجزاً طبيعياً يحمي سكانه من سيطرة القوى الخارجية.

كما أن هذه الطبيعة الجغرافية لم تؤثر في تسمية الإقليم فحسب، بل انعكست أيضاً على طبيعة حياة سكانه، إذ عاشوا في بيئة جبلية تعتمد على الزراعة المحدودة وموارد الغابات، الأمر الذي جعلهم يميلون إلى الاستقلال والاعتماد على أنفسهم في الدفاع عن مناطقهم. وقد أشار عدد من الجغرافيين إلى أن هذه الظروف أسهمت في تكوين مجتمع قوي يميل إلى الشجاعة والقتال، وهو ما يفسر كثرة النزاعات والحروب في تلك المنطقة عبر التاريخ (المقدسي، ١٩٠٩، ص٢٨؛ لسترنج، ١٩٨٥، ص٤٠٩).

أن المسلمين حين توجهوا إلى طبرستان في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (١٣–٢٣هـ / ٦٣٤–٦٤٤م) واجهوا مقاومة شديدة من أهلها، مما اضطرهم إلى عقد الصلح مع بعض حكامها بدل السيطرة المباشرة، وذلك بسبب صعوبة التوغل في جبالها وكثرة ممراتها الضيقة (الطبري، ١٩٦٧، ج٤، ص٢٢٢)، كما أن القائد سعيد بن العاص [٤] لما سار إلى طبرستان، لم يتمكن من إخضاعها إخضاعًا تامًا، بل اكتفى بأخذ الجزية من بعض نواحيها، مشيرًا إلى أن "أرضها وعرة ومسالكها ضيقة"، (البلاذري، ١٩٨٨، ص٣٣٣). وهو وصف يؤكد تأثير الجغرافية الطبيعية في سير العمليات العسكرية.

وقد أشار ابن الأثير أيضًا إلى أن طبرستان بقيت مدة طويلة خارج السيطرة المباشرة للدولة الإسلامية، إذ كان أهلها يتحصنون بالجبال ويشنون الغارات، الأمر الذي جعل الفتح فيها تدريجيًا وغير مستقر، بخلاف الأقاليم السهلية الأخرى (ابن الأثير، ١٩٨٧، ج٣، ص٤٥).

ومن خلال هذه الشواهد يتبين أن الخصائص الجغرافية لإقليم طبرستان – من جبال شاهقة وغابات كثيفة ومناخ رطب – لم تؤثر في تسميته فحسب، بل لعبت دورًا حاسمًا في تاريخه السياسي، ولا سيما في إعاقة الفتح الإسلامي المبكر، وجعلت السيطرة عليه تتم عبر الصلح أو النفوذ غير المباشر أكثر من الفتح العسكري المباشر. وهذا يؤكد الترابط الوثيق بين الجغرافية الطبيعية والتطورات التاريخية في هذا الإقليم.

ثانياً : الموقع الجغرافي والحدود تقع طبرستان وجيلان وديلمان[٥] في القسم الشمالي الغربي من بلاد فارس،

البحار الأخرى ووقوعه بين عدد من الأقاليم المهمة في العالم الإسلامي.(المسعودي، ٢٠٠٥، ص١٠٧)

(٤) صحابي من بني أمية، وُلِد في مكة ونشأ في بيت من بيوت قريش المعروفة بالشرف والسيادة، وكان أبوه من زعماء قريش في الجاهلية. أسلم بعد فتح مكة، وحسن إسلامه، ولاّه الخليفة عثمان بن عفان إمارة الكوفة، وقاد عددًا من الحملات في المشرق، وكان له دور في فتوح طبرستان وما جاورها، توفي سنة ٥٩هـ بالمدينة.(ابن سعد، ١٩٩٠، ج٥، ص٣٣؛ ابن عبد البر، ١٩٩٢ ج٢، ص٦١٨؛ ابن الأثير، ١٩٩٤، ج٢، ص٣٠٧)

(٥) ترد كلمة ديلم اوديلمان عند العرب والفرس, ويستعمل الفرس ايضا كلمة يلمستان وفي القرن الرابع الهجرة وهو الوقت التي ساوت فيه السلطة للبوهيين ذروتها توسع مفهوم كلمة الديلم

وتمتد هذه الأقاليم على طول الساحل الجنوبي الغربي لبحر الخزر، وقد منحت هذه الوضعية الجغرافية طبرستان أهمية كبيرة، لأنها كانت تمثل حلقة اتصال بين السواحل الجنوبية لبحر الخزر وبين أقاليم الداخل الإيراني، ولا سيما الري وقومس، فضلًا عن اتصالها من جهة الشرق بإقليم جرجان، ومن الغرب ببلاد الديلم وأطراف أذربيجان. ولذلك احتلت طبرستان مكانة استراتيجية مهمة في التاريخ السياسي والعسكري، بسبب وقوعها بين البحر والجبال وارتباطها بعدد من الأقاليم الحيوية المجاورة (ابن رسته،١٨٩١، ص١٤٩؛ الاصطخري،١٩٢٧، ص١٢٢؛ ابن حوقل، د. ت ،ج٢، ص٣٧١؛ ابن الفقيه، ١٩٩٦، ص٣٠٤).

وقد حُدِّدت حدود طبرستان في المصادر الجغرافية بأنها تمتد شرقًا نحو جرجان، وغربًا إلى حدود الديلم وأذربيجان، وجنوبًا إلى الري وقومس وقزوين والطرم، أما من الشمال فيحدها بحر الخزر. وهذا الامتداد الجغرافي جعل الإقليم منطقة انتقالية بين البيئات الجبلية والسهول الساحلية، الأمر الذي انعكس على طبيعته الاقتصادية والسياسية والعسكرية. فوجوده بين البحر وسلسلة الجبال منحه طابعًا دفاعيًا واضحًا، كما جعله من الأقاليم التي يصعب تطويقها بسهولة من قبل القوى الخارجية (المقدسي ، ١٩٠٩، ص٣٥٣–٣٥٤؛ الحموي، ١٩٩٥، ج٢، ص١١٩).

كما أن طول طبرستان من الجهة الشرقية القريبة من جرجان إلى أقصى حدودها مما يلي الديلم كان كبيرًا نسبيًا، في حين كان عرضها يختلف بحسب امتداد السهل الساحلي واقترابه من الجبال أو ابتعاده عنها. وقد أدى هذا التباين في الطول والعرض إلى ظهور وحدات جغرافية مختلفة داخل الإقليم نفسه، بعضها أقرب إلى الطابع الجبلي الوعر، وبعضها الآخر أقرب إلى السهول الساحلية المنبسطة، وهو ما ساعد على تنوع النشاط البشري داخل طبرستان بين الزراعة والرعي والتحصن الجبلي (ابن رسته، ١٨٩١،ص١٤٩؛ ابن الفقيه، ١٩٩٦، ص٣٠٤).

و أن طبرستان بقيت من الأقاليم التي لم تستقر فيها السيطرة الإسلامية إلا تدريجيًا، إذ كان أهلها يتحصنون بالجبال ويشنون الهجمات المباغتة على الجيوش، مستفيدين من معرفتهم الدقيقة بالممرات الجبلية، وهو ما جعل الفتح فيها طويل الأمد ومختلفًا عن غيره من الفتوحات في الأقاليم السهلية (ابن الأثير، ١٩٨٧، ج٣، ص٤٥).

كما أن المصادر الجغرافية نفسها تؤكد هذه الحقيقة، إذ وصف المقدسي طبرستان بأنها من "أصعب البلاد مسالك"، لكثرة جبالها وغاباتها وأمطارها، وهو وصف ينسجم مع ما ذكره المؤرخون من صعوبة إخضاعها عسكريًا (المقدسي، ١٩٠٩، ص٣٥٣).

ثالثاً: التضاريس الطبيعية في طبرستان

١- التضاريس الجبلية :

تشكل الجبال العنصر الأبرز في جغرافية طبرستان، إذ تحيط بها السلاسل الجبلية من ثلاث جهات، وتؤلف معظم سطحها، بينما يفتح شمالها على بحر الخزر. وقد كانت هذه الجبال متصلة ببعضها اتصالًا شبه تام، ولا يفصل بينها إلا ممرات ومضائق محدودة تستعملها القوافل التجارية أو الحملات العسكرية. ولذلك اكتسبت طبرستان منذ وقت مبكر شهرة بوصفها إقليمًا حصينًا شديد المنعة، يصعب اقتحامه أو إخضاعه بسهولة، وكان لهذه السمة أثر بالغ في تاريخها السياسي، إذ مكّنت القوى المحلية من الاحتفاظ بقدر من

فصارت تشمل طبرستان وجرجان وقومس وبلاد الخزر ينظر:(ابن رستم، ١٩٩١، ص١٤٩–١٥١؛ المقدسي، ١٩٠٩، ص٢٨, ٣٥٥، ٣٦٠)

الاستقلال أو المقاومة في مواجهة السلطة المركزية (ابن الفقيه،١٩٩٦، ص٣٠٥؛ الاصطخري، ١٩٢٧، ص١٢٢؛ المقدسي ، ١٩٠٩،ص٣٦٥؛ ابن حوقل، د. ت ، ج٢، ص٣٧٧–٣٧٨).

ومن أبرز جبال طبرستان جبل دماوند، وهو أشهر جبال الإقليم وأعظمها ذكرًا في المصادر الإسلامية. وقد وصفه الجغرافيون بأنه جبل عظيم يعلو ما حوله من جبال كالقبة، ويُرى من مسافات بعيدة، وتعلوه الثلوج، وتنبعث من بعض نواحيه الأدخنة، حتى اكتسب في الذاكرة الجغرافية والأسطورية شهرة واسعة. ويمثل هذا الجبل قلبًا طبيعيًا مهمًا في منظومة الدفاع الجغرافي لطبرستان، لأنه يشرف على نواحي الري وبعض مناطق قومس، كما أن وعورته وارتفاعه جعلاه مانعًا طبيعيًا يحول دون سهولة عبور الجيوش. وقد ارتبطت بهذه الناحية أيضًا مجموعة من القلاع والحصون التي زادت الإقليم مناعة، مثل فيروزكوه واستوناوند، الأمر الذي يدل على أن السكان والسلطات المحلية أدركوا مبكرًا القيمة العسكرية لهذه المرتفعات (ابن رسته، ١٨٩١، ص١٥٤؛ الطبري،١٩٦٧، ج١، ص٩٩).

وإلى جانب دماوند، تذكر المصادر جبال شروين بوصفها من أمنع جبال طبرستان وأصعبها مسلكًا، حتى إنها عُدت من أكثر مناطق الإقليم حصانة وتعقيدًا. وقد ارتبطت هذه الجبال بأحداث سياسية مهمة، ولا سيما في العصر العباسي (١٣٢–٦٥٦هـ / ٧٥٠–١٢٥٨م)، حين ظهر أثرها في تمكين بعض الزعماء المحليين من التحصن بها ومقاومة السلطة المركزية. كما وردت في الأخبار صلات هذه الجبال بحكم المازيار[٦] وغيره من أصحاب النفوذ المحلي، بما يؤكد أن الجبل لم يكن مجرد عنصر طبيعي، بل كان قاعدة سياسية وعسكرية فعلية تسند السلطة المحلية وتمنحها القدرة على الاستمرار (الطبري، ١٩٦٧،ج٧، ص٢٩٨؛ ابن اسفنديار، ٢٠٠٢، ج١، ص١٨٨؛ مرعشي،د،ت، ص١١٢).

كما عرفت طبرستان جبالًا أخرى مثل جبال قارن والرونج والفادوسبان، وقد تميزت جميعها بالمناعة وكثرة الأشجار والأدغال وصعوبة المسالك. ويبدو من أوصاف الجغرافيين أن هذه الجبال لم تكن فراغًا طبيعيًا، بل كانت تضم قرى ونواحي ومسالك محدودة ومواقع حكم محلي، وكان لكل ناحية منها رئيس أو أسرة نافذة. ومن هنا أصبحت الجبال في طبرستان إطارًا لظهور زعامات محلية، بل إن بعض الأسر ارتبط اسمها بجبل أو ناحية بعينها، كما هو الحال في أسرة البادوسبان[٧]، وهذا يدل على أن الجغرافية الجبلية أسهمت في تفتيت السلطة المركزية وفي المقابل دعمت قيام سلطات إقليمية محلية تستند إلى الطبيعة الوعرة للإقليم (ابن الفقيه، ١٩٩٦، ص٣٠٥–٣٠٦؛ الحموي،١٩٩٥، ج٥،

(٦) مازيار بن قارن: هو أحد زعماء طبرستان من أسرة قارن، ولاه الخليفة العباسي المأمون حكم طبرستان ودماوند ومنحه لقب الأصبهبد، ثم تمرد لاحقًا على الدولة العباسية في عهد المعتصم.(الطبري، ١٩٦٧،ج٧، ص٢٩٨؛ ابن اسفنديار، ٢٠٠٢، ج١، ص١٨٨؛ ابن الفقيه، ١٩٩٦، ص٣٠٩).

(٧) أسرة البادوسبان: هي أسرة محلية حكمت بعض مناطق طبرستان وقد أسس هذه الأسرة بادوسبان بن جيلان شاه، وكانت سلطتها في البداية تابعة للقوى السياسية الكبرى في الإقليم، مثل الطاهريين ثم العلويين، إلا أنها احتفظت بنفوذ محلي في المناطق الجبلية بسبب طبيعة البلاد الوعرة التي ساعدت على قيام حكم محلي مستقل نسبيًا. وقد استمرت هذه الأسرة في حكم تلك المناطق فترات طويلة، وأدت دورًا مهمًا في تاريخ طبرستان السياسي(إسفنديار، ٢٠٠٢، ص٧٣)

ص١٢٢؛ لسترنج، ١٩٨٥، ص٣٠٧، ٤١٣؛ دائرة المعارف الإسلامية، د، ت،ج١٠، ص٣٦٤–٣٦٥).

ويمكن أن يُستدل على دور الجبال في إيواء السكان والزعامات المحلية بما ذكر في أخبار تمرد مازيار بن قارن، لما اشتد عليه الضغط من قبل الدولة العباسية "تحصّن بالجبال وأوعارها"، واعتمد على معرفته الدقيقة بمسالكها، مما مكّنه من الإفلات من الحملات العسكرية مدة من الزمن (الطبري،١٩٦٧، ج٧، ص٢٩٨).

كما يذكر ابن الأثير أن أهل طبرستان "كانوا إذا خافوا لجؤوا إلى الجبال والشعاب"، حيث لا تستطيع الجيوش ملاحقتهم بسهولة، وهو ما جعل السيطرة عليهم أمرًا صعبًا ومتكرر الاضطراب (ابن الأثير، ١٩٨٧، ج٦، ص٤٠٨) كما يذكر المسعودي أن كثرة الغابات والأشجار في جبال طبرستان كانت توفر غطاءً طبيعيًا يساعد السكان على الاختفاء والتنقل دون أن تتمكن الجيوش من تعقبهم، الأمر الذي جعل تلك الجبال بمثابة حصون طبيعية يصعب اختراقها (المسعودي، ٢٠٠٥، ج١، ص١٨٧). ومن خلال هذه النصوص يتضح أن الجبال في طبرستان لم تكن مجرد عائق جغرافي، بل كانت وسيلة دفاع فعالة، استُخدمت للاختباء والتحصن وإدارة المقاومة.

٢–السهول الساحلية

عرفت طبرستان نطاقًا سهلّيًا مهمًا يتمثل في الأراضي المنخفضة الواقعة بين السفوح الشمالية لجبال البرز وبين ساحل بحر الخزر. وكانت هذه السهول تضيق وتتسع من مكان إلى آخر، لكنها في مجموعها مثلت المجال الزراعي الرئيس للإقليم، ولا سيما في المناطق الواقعة بين سارية وآمل، التي عدّت من أوسع الجهات السهلية في طبرستان. وقد أشار الجغرافيون إلى أن اتساع السهل يختلف باختلاف اقتراب الجبل من البحر أو ابتعاده عنه، ففي بعض المواضع يضيق الشريط الساحلي حتى يكاد الماء يلامس الجبل، بينما يتسع في مواضع أخرى حتى يصبح بينه وبين البحر مسيرة يومين أو أكثر (ابن حوقل، د. ت ، ج٢، ص٣٨١–٣٨٢؛ المقدسي ، ١٩٠٩، ص٣٥٣–٣٥٤؛ التميمي، ٢٠١٠، ص٤٥)

وقد تخللت هذه السهول أنهار صغيرة وتلال منخفضة ومستنقعات وبحيرات موسمية، وهو ما منحها خصوبة زراعية واضحة، لكنه في الوقت نفسه جعل بعض أجزائها صعبة العبور في بعض الفصول. وكانت هذه البيئة السهلية، بخلاف الجبال، أكثر اتصالًا بحركة التجارة والانتقال والعمران، لذلك قامت فيها أهم المدن والمرافئ والمراكز الاقتصادية. ومن هنا أمكن القول إن السهول الساحلية مثلت الذراع الاقتصادي لطبرستان، في حين مثلت الجبال ذراعها الدفاعي (ابن حوقل، د. ت ،ج٢، ص٣٨١؛ الاصطخري،١٩٢٧، ص١٢٧).

٢– الأنهار

لم تكن طبرستان إقليمًا نهريًا كبيرًا بالمعنى المعروف في بلاد الرافدين أو خراسان، لكن كثرة المياه والعيون والأنهار الصغيرة أعطتها حيوية كبيرة. وتنبع معظم أنهارها من المرتفعات الجبلية ثم تتجه شمالًا لتصب في بحر الخزر. ومن أشهرها نهر هراز الذي يخترق مدينة آمل ويقسمها، ثم يسير إلى البحر حيث كانت تقع عند مصبه مدينة أهلم، وهي فرضة آمل وميناؤها التجاري. وقد جعل هذا النهر من آمل مركزًا حضريًا وتجاريًا مهمًا، وربط بين الجبل والسهل والبحر في وقت واحد (المقدسي ، ١٩٠٩، ص٣٥٩؛ الحموي،١٩٩٥ ج١، ص٢٨٤؛ ابن اسفنديار، ٢٠٠٢، ج١، ص٢٣٤–٢٣٧).

كما تذكر المصادر أنهارًا أخرى في السهل الغربي من طبرستان مثل شالوس وبور آباد، فضلًا عن

اتصال بعض المجاري المائية الكبرى مثل سفيد رود بنواحي جيلان وما يجاورها. وقد أسهمت هذه الأنهار في تغذية السهول بالمياه، ودعمت زراعة الأرز والمحاصيل الأخرى، كما ساعدت على قيام التجمعات السكانية واستقرارها. ولذلك كانت الأنهار عنصرًا أساسيًا في البنية الاقتصادية للإقليم، وإن لم تكن صالحة في معظمها للملاحة الكبيرة، إذ أشار الاصطخري إلى أنه ليس في جميع طبرستان نهر تجري فيه سفينة، لقرب البحر واعتماد الحركة الرئيسة عليه (الاصطخري، ١٩٢٧،ص١٢٥؛ ابن حوقل، د. ت ، ج٢، ص٣٨١؛ ابن اسفنديار، ٢٠٠٢، ج١، ص٢٦٢؛ ج١، ص٢٥٩).

و أن الجيوش الإسلامية حين دخلت نواحي طبرستان اعتمدت على السهول القريبة من الساحل لسهولة الحركة فيها، غير أنها كانت تواجه صعوبة كلما تقدمت نحو المناطق الجبلية، (الطبري، ١٩٦٧، ج٤، ص٢٢٢) مما يدل على أن السهول كانت تمثل منطقة عبور أولية وليست مركزًا للسيطرة الكاملة.

كما يذكر البلاذري أن بعض مدن السهول الساحلية خضعت للصلح أو الجزية في المراحل الأولى من الفتح، بخلاف المناطق الجبلية التي ظلت تقاوم، وهو ما يعكس الفرق الواضح بين البيئة السهلية المنفتحة والبيئة الجبلية الحصينة (البلاذري، ١٩٨٨، ص٣٣٣).

و أن السيطرة على السهول لم تكن تعني السيطرة على الإقليم كله، لأن القوى المحلية كانت تنسحب إلى الجبال وتعيد تنظيم نفسها، ثم تعود إلى السهول عند ضعف الوجود العسكري، مما جعل الصراع بين الطرفين يأخذ طابعًا متكررًا (ابن الأثير، ١٩٨٧، ج٣، ص٤٥).

ومن هنا يتضح أن السهول الساحلية في طبرستان كانت تمثل مجالًا للحركة والاتصال، لكنها لم تكن كافية لإحكام السيطرة على الإقليم دون إخضاع المناطق الجبلية، وهو ما يؤكد التكامل بين السهل والجبل في تشكيل الواقع السياسي والعسكري.

٣- البحار

بحر الخزر كان العنصر المائي الأكبر في حياة طبرستان. فهو الحد الشمالي الطبيعي للإقليم، وقد مثّل نافذة تجارية مهمة على العالم المحيط، إذ استفادت منه طبرستان في التجارة الخارجية واتصالها ببعض الشعوب المجاورة، كما تعرضت من خلاله أيضًا لغزوات القراصنة والروس والأتراك.

وقد وصف الجغرافيون هذا البحر بأنه بحر مغلق لا يتصل بغيره من البحار على وجه الأرض، وأن الملاحة فيه تعتمد على الرياح، ويمكن قطعه عرضًا في مدد معلومة إذا ساعدت الظروف. وقد أدى إشراف مدن طبرستان على هذا البحر إلى تعزيز نشاطها التجاري والصناعي والزراعي، فكان البحر مجالًا للنفع والخطر في آن واحد (الاصطخري، ١٩٢٧،ص١٢١، ١٣٢؛ المقدسي ، ١٩٠٩، ص١٩، ٢٣؛ ابن اسفنديار، ٢٠٠٢، ج١، ص٢٦٦).

ومن جهة أخرى، فقد مثّل البحر وسيلة اتصال اقتصادي مهمة، و أن مدن طبرستان الساحلية كانت تتعامل تجاريًا مع المناطق الواقعة على الضفة المقابلة، وأن البحر كان طريقًا لنقل السلع، ولا سيما الأخشاب والحبوب، مما ساعد على ازدهار النشاط الاقتصادي في الإقليم (ابن حوقل، د.ت، ج٢، ص٣٨٢).

كما أشار المقدسي إلى أن قرب المدن من البحر أسهم في نشاطها التجاري، لكنه في الوقت نفسه جعلها عرضة للأخطار، إذ كان البحر "بابًا للنفع وبابًا للغزو"، (المقدسي، ١٩٠٩، ص٢٣) وهو وصف دقيق يعكس الازدواجية التي مثلها هذا العنصر الجغرافي.

رابعًا: التربة والنبات الطبيعي في إقليم طبرستان

امتازت تربة إقليم طبرستان بتنوع واضح نتيجة اختلاف تضاريسه وتباين مناخه بين السهول الساحلية الرطبة والمناطق الجبلية المرتفعة. فقد ساعد هذا التنوع في التربة على تنوع النشاط الزراعي والنباتي في الإقليم، الأمر الذي انعكس بصورة مباشرة على الحياة الاقتصادية للسكان. ففي السهول الساحلية المطلة على بحر الخزر انتشرت التربة الطينية الرمادية الغنية بالرطوبة، وهي تربة مناسبة لزراعة الأرز، ولذلك عُرفت طبرستان منذ العصور الإسلامية الأولى بكثرة إنتاجها لهذا المحصول.

وقد أشار ابن حوقل إلى خصوبة هذه الأراضي ووفرة إنتاجها، إذ قال: "وأرض طبرستان كثيرة المياه والأنهار، يكثر فيها الأرز وسائر الزروع." ويُظهر هذا النص أن وفرة المياه وخصوبة التربة أسهمتا في ازدهار الزراعة في هذه المنطقة، حتى أصبح الأرز من أهم منتجات الإقليم التي تُنقل إلى الأقاليم المجاورة(ابن حوقل، د. ت ، ج٢، ص٣٨١–٣٨٢)

أما في المناطق الواقعة عند السفوح الجبلية الدنيا فقد كانت التربة أكثر تنوعًا، إذ سمحت بزراعة محاصيل أخرى مثل القطن والقمح وبعض الفواكه. وقد أشار الاصطخري إلى تنوع المنتجات الزراعية في طبرستان بقوله: "وبها من الزروع والثمار ما لا يوجد مثله في كثير من البلدان." ويعكس هذا النص غنى البيئة الزراعية في الإقليم، حيث أسهم اعتدال المناخ وتوافر المياه في تنوع الإنتاج الزراعي. كما أن هذه المناطق كانت حلقة وصل بين السهل الساحلي والجبال، الأمر الذي جعلها من أكثر مناطق طبرستان استقرارًا بالسكان.(الاصطخري،١٩٢٧، ص١٢٤–١٢٥؛ ابن الفقيه، ١٩٩٦، ص٣٠٣).

أما السفوح الجبلية الوسطى فقد غطتها الغابات الكثيفة التي شكلت عنصرًا مهمًا من عناصر البيئة الطبيعية في طبرستان، إذ نمت فيها أشجار مختلفة مثل والبلوط الزان [٨]. وقد أشار عدد من الجغرافيين إلى كثافة الغابات في هذا الإقليم، الأمر الذي جعل الخشب من الموارد الاقتصادية المهمة فيه، وأن هذه الغابات كانت تمتد على مساحات واسعة من جبال طبرستان، وكانت توفر موارد متعددة للسكان مثل الأخشاب والثمار البرية، كما كانت ملاذًا طبيعيًا يحتمي به السكان في أوقات الحروب والاضطرابات السياسية.(ابن إسفنديار، ٢٠٠٢، ج١، ص٧٦؛ عبد الله، ٢٠٠٨، ص ٣٧).

أما الأجزاء العليا من جبال طبرستان فكانت أقل صلاحية للزراعة بسبب شدة الانحدار وانخفاض درجات الحرارة، غير أنها كانت تغطيها في بعض المواضع نباتات برية وحشائش تصلح لرعي الماشية. وقد أسهم ذلك في انتشار نشاط الرعي بين سكان المناطق الجبلية، إلى جانب اعتمادهم على موارد الغابات. ويشير مسكويه في حديثه عن أحوال هذه المناطق إلى أن طبيعتها الجبلية الوعرة جعلتها مأوى مناسبًا للسكان في أوقات الاضطراب، إذ كانت توفر لهم الغذاء والحماية في آن واحد.(مسكويه، ١٩٤١، ج٦، ص٥٧١).

ومن خلال ذلك يتضح أن تنوع التربة والنبات الطبيعي في طبرستان كان له أثر كبير في تنوع النشاط الاقتصادي في الإقليم، حيث اجتمعت فيه الزراعة والغابات والرعي. وقد أسهم هذا التنوع في تحقيق قدر من الاكتفاء الذاتي للسكان، كما ساعد الإقليم على

(٨) الزّان نوع من الأشجار الكبيرة التي تنمو في الغابات الجبلية الرطبة، وقد اشتهرت بها جبال طبرستان، حيث شكّلت مع غيرها من الأشجار الكثيفة غطاءً نباتيًا واسعًا ساعد على وفرة الأخشاب التي استُعملت في البناء وصناعة الأدوات المختلفة.(المقدسي، ١٩٠٦، ص٣٥٣؛ ابن حوقل، د. ت، ج٢، ص٣٨١).

الحفاظ على استقراره النسبي رغم ما مر به من اضطرابات سياسية، إذ وفرت البيئة الطبيعية موارده الأساسية التي اعتمد عليها السكان في حياتهم اليومية.

خامساً: المناخ

كان مناخ طبرستان من العوامل الطبيعية الحاسمة في تشكيل حياة السكان، بسبب تنوعه تبعًا لتنوع التضاريس. فالمناطق الساحلية الواقعة على بحر الخزر تمتعت بمناخ شبه مداري ذي أمطار غزيرة ورطوبة مرتفعة، وشتاء معتدل نسبيًا وصيف حار. أما كلما اتجه الإنسان نحو الداخل الجبلي، ولا سيما نحو المرتفعات الجنوبية، أخذت درجات الحرارة بالانخفاض في الشتاء، واعتدل الصيف، وانخفضت نسبة الرطوبة في الهواء. وقد أشار الجغرافيون إلى كثرة الأمطار في طبرستان حتى في فصول مختلفة من السنة، ورأوا أن المطر الدائم من خصائصها البارزة (ابن حوقل، د. ت ،ج٢، ص٣٨١؛ ج٢، ص٣٨٢).

وقد أثّر هذا المناخ تأثيرًا مباشرًا في توجيه النشاط البشري، إذ ساعدت وفرة المطر والرطوبة في تنمية الزراعة والغابات، بينما كانت كثرة التبخر والمياه والوحول من العوامل التي تعيق الحركة أحيانًا، ولا سيما على الغرباء أو الجيوش العابرة. ولهذا وصفت بعض المصادر مناخ طبرستان بأنه مناخ مؤذٍ للغريب بسبب أمطاره الكثيرة وطرقها الصعبة. كما انعكس هذا المناخ على نمط البناء، إذ كانت بيوت طبرستان في كثير من المواضع تصنع من الخشب والقصب وتغطى بسطوح مائلة ملائمة لغزارة الأمطار (الاصطخري، ١٩٢٧،ص١٢٥؛ ابن حوقل، د. ت ، ج٢، ص٣٨١–٣٨٢؛ إيست،د.ت ص٤٤).

أسهم اعتدال الحرارة وكثرة الأمطار والرطوبة في نمو غابات كثيفة في الجهات الشمالية من جبال طبرستان وديلمان، حتى بدت بعض نواحيها شبيهة بالمناطق الغابية الواسعة. وكانت هذه الغابات أكثر كثافة في الأقسام الشمالية الغربية مقارنة بالأقسام الشمالية الشرقية، بسبب تفاوت الرطوبة وكميات الأمطار. وقد جعل ذلك من الغابة عنصرًا مهمًا في حياة الإقليم، سواء من حيث الأخشاب أو من حيث دورها العسكري في إعاقة الحركة والاختراق (الاصطخري، ١٩٢٧،ص١٢٤؛ ابن الفقيه، ١٩٩٦، ص٣٠٣؛ البلاذري، ١٩٨٨، ص٢٣٤؛ ابن اسفنديار،٢٠٠٢، ج١، ص٣٦).

كما تؤكد المصادر التاريخية أن الحملات التي توجهت إلى طبرستان كانت تعاني من صعوبة السير بسبب كثرة الأمطار والوحول، الأمر الذي كان يبطئ تقدم الجيوش ويجعلها عرضة لهجمات السكان المحليين (الطبري، ١٩٦٧، ج٤، ص٢٢٢).

و أن بعض قادة المسلمين كانوا يتجنبون التوغل في المناطق الداخلية لطبرستان في أوقات معينة من السنة، بسبب سوء الأحوال الجوية وكثرة الأمطار، وهو ما يعكس إدراكهم لتأثير المناخ في العمليات العسكرية (البلاذري، ١٩٨٨، ص٣٣٣).

المبحث الثاني: المدن والعمران في إقليم طبرستان

أولًا: المدن الجبلية في إقليم طبرستان

ارتبط ظهور المدن الجبلية في إقليم طبرستان بطبيعة الإقليم الجغرافية التي يغلب عليها الطابع الجبلي، إذ تحيط به سلسلة جبال البرز من الجنوب والجنوب الغربي، بينما تمتد سهوله الخصبة بمحاذاة الساحل الجنوبي لبحر الخزر. وقد أسهمت هذه البيئة الجبلية الوعرة في نشوء عدد من المدن والقرى التي اتخذت مواقعها في الوديان وبين السفوح الجبلية، مستفيدة من المناعة الطبيعية التي وفرتها الجبال والغابات الكثيفة. لذلك اكتسبت هذه المدن طابعًا دفاعيًا

واضحًا، إذ كانت بمثابة حصون طبيعية تحمي الإقليم من الغزوات الخارجية، ولا سيما من جهة بلاد الديلم والمناطق المجاورة، ومن اهم هذه المدن:

١- فريم

تُعد مدينة فريم من أقدم المراكز الجبلية في طبرستان، إذ كانت مقرًا لأسرة آل قارن[٩] منذ العهد الساساني، ذكر الاصطخري في وصفه لجبال طبرستان نصًا يدل على أهمية هذه المدينة فقال: "وأما جبال قارن فإنها قرى كثيرة، ومستقر آل قارن بمدينة فريم، وهو موضع حصونهم وذخائرهم ومكان ملكهم." (الاصطخري، ١٩٢٧، ص١٢١؛ ابن إسفنديار،٢٠٠٢، ج١، ص٧٦).

يدل هذا النص على أن مدينة فريم كانت من أهم المراكز السياسية في جبال طبرستان، إذ اتخذتها أسرة آل قارن مقرًا لحكمها منذ العهد الساساني واستمرت أهميتها في العصور الإسلامية الأولى. كما يشير النص إلى وجود الحصون فيها، وهو ما يعكس طبيعة المدن الجبلية في الإقليم التي كانت تعتمد على التحصين الطبيعي الذي توفره الجبال الوعرة. وقد أسهم هذا الموقع الجغرافي في جعل فريم مركزًا مهمًا للسيطرة على المناطق الجبلية وإدارة شؤونها السياسية والعسكرية.

وقد مثلت مركزًا سياسيًا مهمًا في الجبال، كما كانت تضم حصونًا ومراكز دفاعية استُخدمت لحفظ الذخائر وإدارة شؤون الحكم، الأمر الذي يدل على أهميتها العسكرية والإدارية في تاريخ طبرستان، ولا سيما في المناطق الجبلية التي صعب إخضاعها بسبب طبيعتها الوعرة(الاصطخري، ١٩٢٧، ص١٢١؛ ابن إسفنديار، ٢٠٠٢، ج١، ص٧٦).

٢- شمهار

تُعد شمهار من المدن الجبلية التي ارتبطت بنشاط التعدين في طبرستان، إذ تشير المصادر إلى وجود معادن مختلفة في جبالها، مثل الحديد والرصاص. وقد ساعد هذا النشاط على تنشيط الحركة الاقتصادية في المناطق الجبلية (ابن رسته، ١٨٩١، ص١٥١؛ المقدسي، ١٩٠٦، ص٣٥٣).

٣- كلار

تُعد كلار من المدن الجبلية الواقعة غرب شالوس[١٠] على حدود طبرستان المتاخمة لبلاد الديلم، ولذلك كانت تُعد من الثغور المهمة للمسلمين في تلك المنطقة. ويذكر الطبري أن هذه المدينة كانت كثيرة الغابات والأشجار، مما جعلها مكانًا مناسبًا للرعي والاحتطاب، كما كانت تضم مسلحة عسكرية لحماية الثغر ومراقبة الحدود مع الديلم.(الطبري، ١٩٦٧، ج٧، ص٢٩٨؛ الحموي، ١٩٩٥، ج٤، ص١٤).

٤- رويان

(٩) أسرة آل قارن:أسرة محلية قديمة حكمت بعض مناطق طبرستان في شمال إيران، وتنتمي إلى بيوتات النبلاء الفرس التي احتفظت بنفوذها بعد الفتح الإسلامي. وقد ظهر نفوذهم بصورة واضحة في العصر العباسي، حيث حكموا أجزاءً من الإقليم بلقب الأصبهبذ الذي كان يُطلق على حكام طبرستان. ومن أشهر رجال هذه الأسرة مازيار بن قارن الذي ولاه الخليفة العباسي المأمون حكم طبرستان، قبل أن يتمرد على الخلافة في عهد المعتصم سنة (٢٢٥هـ / ٨٤٠م). وقد ساعدت الطبيعة الجبلية الوعرة لطبرستان على استمرار نفوذ هذه الأسرة في المنطقة مدة طويلة.(ابن إسفنديار، ٢٠٠٢، ج١، ص٧١؛ الطبري، ١٩٦٧، ج٨، ص٦١٣).

(١٠) شالوس:مدينة تقع في سهل طبرستان بالقرب من جبال الديلم، وكانت من المدن المهمة في الإقليم، إذ عُرفت بكونها ثغرًا يربط بين السهل والجبال، كما كانت ذات قلعة وسور ومسلحة عسكرية لحماية المنطقة من غارات الديلم.(ابن الفقيه، ١٩٩٦، ص٣٠٥).

من المدن الجبلية المهمة في غرب طبرستان، وقد اكتسبت أهمية عسكرية واقتصادية في الوقت نفسه، إذ كانت ثغرًا على حدود الديلم، كما اشتهرت بصناعة بعض المنتجات الصوفية والمعاطف الواقية من المطر التي كانت تُصدَّر إلى مناطق مختلفة. كما خرج من هذه المدينة عدد من العلماء الذين أسهموا في الحركة العلمية في العالم الإسلامي(ابن الفقيه،١٩٩٦، ص٣٠٥؛ الحموي، ١٩٩٥، ج٥، ص١٢٢).

٥- كجور

كانت كجور من المدن الجبلية التي اتخذها حكام المنطقة مركزًا للإدارة، إذ كانت مقرًا لحاكم الولاية المعروف بلقب "ستندار" ،(الاصطخري، ١٩٢٧، ص١٢٤).

وذكر ابن حوقل، في وصف المدن الجبلية في طبرستان:"وكجور مدينة في الجبال، وهي مقر صاحب الولاية، وبها مسلحة تقوم بحماية تلك النواحي."(ابن حوقل، د. ت ، ج٢، ص٣٨١).

ثانيًا: المدن السهلية في إقليم طبرستان

ارتبطت المدن السهلية في طبرستان بطبيعة السهل الساحلي الخصيب الممتد على الساحل الجنوبي لبحر الخزر، ولذلك تميزت هذه المدن بكثرة السكان وازدهار الزراعة واتصالها بطرق التجارة والمرافئ البحرية. وإذا كانت المدن الجبلية قد أدت دورًا دفاعيًا واضحًا، فإن المدن السهلية مثلت المراكز الاقتصادية والإدارية الكبرى في الإقليم، إذ قامت فيها الأسواق، والمساجد الجامعة، ودور الإمارة، ونشطت فيها الصناعات والحرف، كما خرج منها عدد كبير من العلماء والفقهاء. ومن هنا فإن دراسة هذه المدن تكشف عن الوجه الحضري لطبرستان، وتوضح أثر السهل الخصيب والموقع البحري في نشوء العمران وتطوره.: ومن أهمها:

١- آمل

تُعد آمل من أهم مدن سهل طبرستان وأشهرها، بل كانت من كبريات مدن الإقليم ومركزه السياسي في فترات متعددة. وقد وصفها اليعقوبي بقوله: "آمل على بحر الديلم"، كما ذكر الجغرافيون أنها تقع في وسط سهل طبرستان، وبينها وبين سارية ثمانية عشر فرسخًا، وبينها وبين الرويان اثنا عشر فرسخًا، مما يدل على موقعها المتوسط بين مدن الإقليم.(اليعقوبي ،١٩٦٠، ص١٢٣)

ويكشف هذا الموقع عن أهمية آمل من الناحية الجغرافية، إذ كانت تتوسط السهل الخصيب، وتتصل بالبحر عن طريق نهر هراز، ولذلك أصبحت مركزًا للسكان والتجارة والإدارة. كما كانت عاصمة لطبرستان قبل خضوعها للطاهريين، ثم استعادت مكانتها السياسية بعد قيام الدولة العلوية فيها.(اليعقوبي، ١٩٦٠، ص٢٧٦؛ أبو الفداء، ١٨٤٠، ص٤٣٧؛ دائرة المعارف الإسلامية، د.ت، ج٢، ص٦٢٦).وذكر المقدسي في وصف آمل: "ولهم مع ذلك جامعان، في العتيق نهر وأشجار..."، كما أشارت المصادر إلى أن المدينة كان يحيط بها سور وخندق كبيران، وظلا قائمين حتى زمن مازيار بن قارن[١١] (المقدسي، ١٩٠٩، ، ص٣٥٩)

(١١) مازيار بن قارن أحد زعماء طبرستان في العصر العباسي، وينتمي إلى أسرة قارن المحلية التي حكمت بعض مناطق الإقليم. ولاّه الخليفة العباسي المأمون حكم طبرستان ودماوند ومنحه لقب الأصبهبد، وهو لقب كان يطلق على حكام طبرستان. وقد تمتع مازيار بنفوذ واسع في المنطقة مستفيدًا من طبيعة البلاد الجبلية التي ساعدت على استقلال الحكام المحليين، إلا أنه تمرّد لاحقًا على الخلافة العباسية في عهد الخليفة المعتصم بالله، فقبض عليه وأُرسل إلى سامراء حيث قُتل سنة (٢٢٥هـ / ٨٤٠م).(الطبري، ١٩٦٧، ج٨، ص٦١٣؛ ابن الأثير، ١٩٨٧، ج٦، ص٤٧٦).

واشتهرت آمل كذلك بوفرة مواردها الزراعية والصناعية؛ فقد انتشرت في نواحيها زراعة الأرز والثوم والقطن، كما عُرفت بصناعة الفرش والثياب المنسوجة من الصوف والحرير والكتان. وخرج منها عدد من العلماء، أشهرهم محمد بن جرير الطبري الذي نسب إليها واشتهر في العالم الإسلامي كله(ابن النديم، ١٩٩٩، ص٣٨٥).

٤- أهلم

تُعد أهلم الفرضة البحرية لمدينة آمل، وقد أشار ياقوت الحموي إلى أنها بليدة على ساحل البحر من نواحي طبرستان وتبرز أهمية أهلم في كونها ميناء آمل ومحط السفن والتجار، مما يعني أنها مثلت حلقة الوصل بين الداخل الزراعي في آمل وبين التجارة البحرية عبر بحر الخزر. ومن هنا فإن دورها لم يكن منفصلًا عن دور آمل، بل كانت منفذها التجاري الرئيس ومركزًا لنقل البضائع والمنتجات(الحموي، ١٩٩٥، ج١، ص٢٨٤).

٥- سارية

كانت سارية من المدن السهلية الكبرى في طبرستان، وتبعد ثلاثة فراسخ عن بحر الخزر وثمانية عشر فرسخًا عن آمل. وقد اتخذها الطاهريون[١٢] مركزًا لحكمهم بعد أن كانت آمل هي العاصمة من قبل، مما يدل على أهميتها الإدارية والسياسية، وقد وصفها المقدسي بأنها مدينة عامرة حصينة ذات أسواق وجامع وأروقة، كما عُرفت بإنتاج الثياب الحريرية والصوفية والقطنية، وبتجارتها الواسعة. ويعني ذلك أن سارية كانت تجمع بين الوظيفة السياسية والاقتصادية، وهو ما جعلها من أهم مدن السهل في طبرستان.(المقدسي ، ١٩٠٩، ص٣٥٩) ترتبط أهمية سارية أيضًا بمكانتها الدينية والعلمية، إذ تشير المصادر إلى أن أبا الخصيب عامل الخليفة المنصور بنى مسجدها وجعل له منبرًا بعد فتح طبرستان سنة ١٤٢هـ. كما نُسب إليها عدد من العلماء والفقهاء، ومنهم أبو إسحاق السروي[١٣] وآخرون.(ابن أبي سفنديار، ١٩٩٢، ج١، ص١٨٠؛ ؛ السامرائي، ٢٠١٥، ص٤٩).

الخاتمة

١. أظهرت الدراسة أن العوامل الجغرافية في إقليم طبرستان لم تكن مجرد إطار طبيعي، بل شكّلت عنصرًا حاسمًا في توجيه الأحداث التاريخية والسياسية في الإقليم، وأسهمت في تحديد طبيعة تطوره عبر العصور
٢. بيّنت النتائج أن الموقع الجغرافي لطبرستان، بين بحر الخزر وسلسلة جبال البرز، منحها أهمية استراتيجية كبيرة، وجعلها حلقة وصل بين الأقاليم الداخلية والساحلية، مما أثر في دورها السياسي والعسكري
٣. كشفت الدراسة أن الطبيعة الجبلية الوعرة للإقليم أسهمت في صعوبة إخضاعه، ومنحت سكانه قدرة كبيرة على

(١٢) الطاهريون:أسرة حاكمة ظهرت في العصر العباسي، أسسها طاهر بن الحسين بعد أن ولاه الخليفة المأمون ولاية خراسان سنة (٢٠٥هـ)، فكانت أول أسرة تحكم خراسان حكمًا شبه مستقل مع بقاء تبعيتها الاسمية للخلافة العباسية. وقد امتد نفوذهم إلى بعض مناطق طبرستان، ولاسيما مدينة سارية التي اتخذوها مركزًا لإدارة الإقليم في بعض الفترات.(الطبري، ١٩٦٧، ج٨، ص٥٦٣؛ ابن الأثير، ١٩٨٧، ج٦، ص٣٩٧).

(١٣) أبو إسحاق السَّروي: هو إبراهيم بن محمد بن موسى السَّروي المطمهري، فقيه شافعي من علماء طبرستان، نسبته إلى مدينة سارية. عُرف بالفقه والعلم، وتولى القضاء في بلده، كما رحل إلى بغداد واشتغل بالعلم والتدريس، وكان له إسهام في نشر العلوم الشرعية في إقليم طبرستان.(السمعاني، ١٩٨٨، ج٣، ص١٩٧؛ القمي، د.ت، ص ٧٥؛ ليسترنج، ١٩٥٤، ص ٩٦؛ مصطفى وآخرون، د.ت، ص٤٣).

المقاومة والحفاظ على نوع من الاستقلال السياسي لفترات طويلة

٤. تبيّن أن الغابات الكثيفة والتضاريس الصعبة كانت تمثل حصونًا طبيعية، استخدمها السكان كوسيلة دفاع فعالة ضد الغزوات الخارجية، مما جعل السيطرة على الإقليم أمرًا معقدًا

٥. أوضحت الدراسة أن السهول الساحلية الخصبة ساعدت على ازدهار النشاط الزراعي، ولا سيما زراعة الأرز، وأسهمت في دعم الاقتصاد المحلي وتحقيق قدر من الاستقرار المعيشي

٦. أكدت النتائج أن الأنهار والموارد المائية، رغم صغر حجمها، لعبت دورًا مهمًا في تغذية الأراضي الزراعية ودعم الاستقرار العمراني، ولا سيما في مدن مثل آمل وسارية

٧. بيّنت الدراسة أن المناخ الرطب وكثرة الأمطار أسهما في تكوين بيئة زراعية وغابية متميزة، لكنه في الوقت نفسه شكّل عائقًا أمام حركة الجيوش، مما أثر في مجريات العمليات العسكرية

٨. كشفت النتائج أن التنوع في التربة والنبات الطبيعي أدى إلى تنوع النشاط الاقتصادي بين الزراعة والرعي واستغلال الغابات، مما ساعد على تحقيق الاكتفاء الذاتي للسكان

٩. أوضحت الدراسة أن الجغرافية أسهمت في ظهور مراكز عمرانية متعددة، خاصة في السهول والوديان، حيث نشأت المدن وفقًا لطبيعة البيئة، مما يعكس العلاقة بين العمران والجغرافية

١٠. خلصت الدراسة إلى أن العوامل الجغرافية في طبرستان كانت عاملًا رئيسًا في تشكيل تاريخ الإقليم السياسي والاقتصادي، وأن فهم هذه العوامل يُعدّ أساسًا لفهم طبيعة نشوء الدول واستمرارها أو ضعفها

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: المصادر التاريخية

ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد الجزري (ت ٦٣٠هـ). أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، (بيروت، ١٩٩٤م).

ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد الجزري (ت ٦٣٠هـ). الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الوهاب النجار، المطبعة المنيرية، (القاهرة، ١٩٩٩م).

ابن إسفنديار، بهاء الدين محمد بن حسن (ت ٦١٣هـ). تاريخ طبرستان، ترجمة وتقديم: أحمد محمد نادي، المشروع القومي للترجمة، (القاهرة، ٢٠٠٢م).

ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني (ت نحو ٣٦٥هـ). مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، (ليدن، ١٩٩٦م).

ابن حوقل، محمد بن علي النصيبي (ت بعد ٣٦٧هـ). صورة الأرض، مطبعة بريل، (ليدن، د.ت).

ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر الأصبهاني (ت بعد ٣٠٠هـ). الأعلاق النفيسة، تحقيق: دي خويه (De Goeje)، مطبعة بريل، (ليدن، ١٨٩١م).

ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت ٢٣٠هـ). الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، (بيروت، ١٩٩٠م).

ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله النمري القرطبي (ت ٤٦٣هـ). الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، (بيروت، ١٩٩٢م).

ابن النديم، محمد بن إسحاق (ت ٣٨٠هـ). الفهرست، تحقيق: يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، (بيروت، ٢٠١٠م).

الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ). تاريخ الأمم والملوك، دار التراث، (بيروت، ١٩٦٧م).

١١. أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد (ت ٧٣٢هـ).٢٢. تقويم البلدان، تحقيق: دي سلان، دار الطباعة السلطانية، (باريس، ١٨٤٠م).
١٢. البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ)١. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب، (بيروت، ١٩٩٣م).
١٣. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ). فتوح٢. البلدان، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دار ومكتبة الهلال، (بيروت، ١٩٨٨م).
١٤. الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (ت٣. نحو ٣٤٦هـ). المسالك والممالك، تحقيق: دي خويه (De Goeje)، مطبعة بريل، (ليدن، ١٩٢٧م). ٤.
١٥. الحموي، ياقوت بن عبد الله الرومي (ت ٦٢٦هـ). معجم البلدان، دار صادر، ط٢، (بيروت، ١٩٩٥م). ٥.
١٦. السمعاني، عبد الكريم بن محمد (ت ٥٦٢هـ). الأنساب، دار الفكر، (بيروت، دون تاريخ). ٦.
١٧. القزويني، زكريا بن محمد (ت ٦٨٢هـ). آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، (بيروت، ١٩٦٠م).
١٨. المقدسي، محمد بن أحمد البشاري (ت نحو ٣٨٠هـ)٧. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، (ليدن، ١٩٠٩م).
١٩. المسعودي، علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ). مروج الذهب٨. ومعادن الجوهر، دار الكتب العلمية، (بيروت، ٢٠٠٥م).
٢٠. مسكويه، أحمد بن محمد (ت ٤٢١هـ). تجارب الأمم٩. وتعاقب الهمم، تحقيق: هـ. ف. أمِدروز، مطبعة شركة التمدن الصناعية، (القاهرة، ١٩١٤م).
٢١. مرعشي، ظهير الدين بن عبد الله (ت بعد ٨٨١هـ).١٠. تاريخ طبرستان ورويان ومازندران، تحقيق: محمد حسين تسبيحي، دار الكتب العلمية، (بيروت، ١٩٨٤م).
اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤هـ). البلدان، دار صادر، (بيروت، ١٩٦٠م).

ثانيًا: المراجع

التميمي، حيدر قاسم. العلويون في المشرق الإسلامي وأثرهم الفكري والحضاري حتى القرن الخامس الهجري، دار النهضة العربية، (القاهرة، ٢٠١٠م).
دائرة المعارف الإسلامية، إعداد: مجموعة من المستشرقين، ترجمة: مجموعة من الباحثين، دار إحياء التراث العربي، (بيروت، د.ت).
رابينو، هـ. ل. مازندران وأستر آباد، ترجمة: وحيد مازندراني، مطبعة بنك ملي إيران، (طهران، ١٩٩٩م).
الزركلي، خير الدين ،الأعلام، دار العلم للملايين، (بيروت، د.ت).
كحالة، عمر رضا ، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، (بيروت، ١٩٥٧م).
لسترنج، كي ، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، (بيروت، ١٩٨٥م).
ولبر، دونالد، إيران ماضيها وحاضرها، ترجمة: عبد النعيم محمد حسنين وإبراهيم الشواربي، دار مصر للطباعة، (القاهرة، ١٩٥٨م).
إيست، جوردن ، الجغرافية توجه التاريخ، ترجمة: جمال الدين الدناصوري، دار الهلال، (القاهرة، د.ت).

ثالثًا: الدوريات والرسائل الجامعية

حبيب، مهدي جواد. الدولة العلوية في طبرستان، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، (بغداد، ١٩٦٨م).
عبد الله، أحمد محمود. إقليم طبرستان في العصر الإسلامي حتى القرن الرابع الهجري: دراسة تاريخية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة الموصل، (الموصل، ٢٠٠٨م).

١١. العزاوي، عبد العزيز.
١٢. "الأوضاع السياسية في طبرستان خلال العصر العباسي"، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد (٤٥)، (بغداد، ٢٠١٢م).
١٣. السامرائي، محمد جاسم.
١٤. "الخصائص الجغرافية لإقليم طبرستان وأثرها في تاريخه السياسي"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة تكريت، العدد (١٨)، (تكريت، ٢٠١٥م).

رابعًا: المصادر الأجنبية

Encyclopaedia Britannica. (2025). Mazandaran